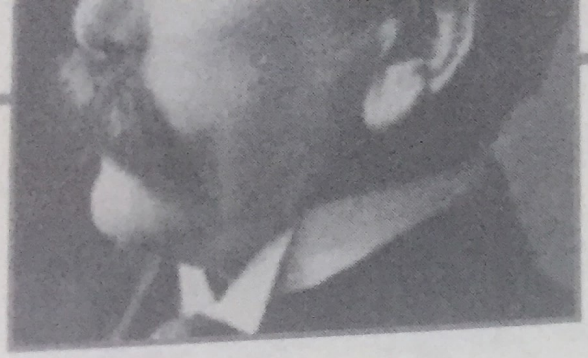

سوسير واللغة والفكر

إن الفكر في حدّ ذاته يشبه السحابة الدوّامة التي ليس لها هيئة محدّدة بشكل جوهري. ليس هناك أفكار مسبقة ولا شيء واضح المعالم قبل أن نأتي بالبنية اللغوية.

ولكن هل تشكّل الأصوات ـ التي تقع خارج العالم الغامض للفكر ـ في حدّ ذاتها كيانات تقام مسبقاً ليس بوسعها أكثر ممّا تفعله الأفكار؟ إن مادّة الصوت ليست أكثر ثباتاً أو صلابة من مادّة الفكر. وليس فيها قالب جاهز بأشكال تحتّم على الفكر أن يتوافق معها. بل هي مادّة سهلة التشكيل يمكن صياغتها في أجزاء منفصلة لكي تعطي الإشارات التي يحتاجها الفكر. لذلك باستطاعتنا أن نتصوّر الظاهرة اللغوية بكاملها ـ ونقصد بذلك اللغة ـ على شكل سلسلة من تقسيمات ثانوية متجاورة مطبوعة في الوقت ذاته على سطح الفكر الغامض الذي لا شكل له وعلى سطح الصوت الذي لا ملامح له بالدرجة نفسها.

ومثلما يستحيل قطع ورقة بالمقصّ من جانب دون قطع الجانب الآخر

الواقع لا يوجد سوى دليل بسيط في مواقع أخرى من المقالة توحي أن تلك هي الطريقة التي قصد لوك أن تُفسّر فيها ملاحظاته.

وقد وجد الكثيرون من أتباعه في القرن الثامن عشر أكثر من ذلك في النص المذكور. وعلى سبيل المثال، يبدو أن النص يوحي بأن التوسّع التاريخي في المفردات من مجمل مسمّيات الأفكار المتعلّقة بالإحساس متلازم مع التوسّع في خزين الأفكار في ذهن الإنسان. بمعنى أن تطوّر اللغة وتطوّر المعرفة يمثّلان عمليات متداخلة يعتمد بعضها على بعضها الآخر. وهكذا عندما ندرس أصول المفردات والكيفية التي تطوّرت وتوسّعت فيها اللغة في مفرداتها يمكننا أن نفهم في الوقت ذاته تطوّر وتوسّع الأفكار لدى الناس الذين كانوا يتكلمون تلك اللغة. وبرغم أن الأمر لا يخلو من تناقض قد يكون ناجماً عن خطأ في تفسير أتباع لوك في القرن الثامن عشر، نجد أن أولى بذرات الرومانسية في القرن التاسع عشر موجودة في ملاحظات لوك: - لا سيّما المفهوم الرومانسي - أن اللغة التي يتكلمها مجتمع ما تعكس وتبرز إلى حدٍّ ما الطريقة التي يفكّر بها أفراد ذلك المجتمع.

وكان تأثير لوك في الفكر في القرن الثامن عشر كبيراً جداً يتعذّر قياسه. وقد أضفى على الفكر نسخة مفصلة وموضحة عن المفهوم العقلي للغة الذي نشأ أصلاً لدى أرسطو. ليس ذلك فقط وإنما طرح اهتمامات جادة ومنطقية بشكل واضح تخص قدرة اللغة - كونها وسيلة كفء - على خدمة التواصل الذهني للأفكار. وقد عرض لوك أساليب التحليل والتعريف علاجاً لنواقص اللغة. ومع ذلك قد يبدو من قبيل المفارقة أن تأثير لوك المباشر في الفكر اللغوي لدى أتباعه في القرن الثامن عشر كان من تبعات النص الأخير الذي أشرنا إليه في أعلاه. لأنّ من ضمن تلك التبعات جاء الاهتمام بالاستعارة في القرن الثامن عشر إلى حد كبير والاهتمام بأصول المفردات وأصل اللغات والعلاقة المتداخلة بين اللغة والعقل .